مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 08 العدد: 01 جانفي (2024) ص 210/ 223

تأثير السماع اللغوي في الفصاحة واللهجات عند عبد الرحمان حاج صالح

The effect of linguistic listening on the eloquence and dialects of Abd al-Rahman Haj Saleh

حمزة جيدل	نسيمة لوح
جامعة لونيسي علي 2 البليدة (الجزائر)	جامعة لونيسي علي 2 البليدة (الجزائر)
djidelhamza633@gmail.com	nassimalouh@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/10/12
تاريخ القبول:
2024 /01 /17

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الفصاحة
- ✓ اللسانيات
- ✓ السماع
- ✓ اللغة
- ✓ اللهجات

الملخص:

تهدف هذه الدراسة الى كشف مفهوم الفصاحة من خلال الاستقراء الذي قام به عبد الرحمان حاج صالح للموروث اللغوي القديم وتحديد الأسس التي أقرها من خلال إعادة تشكيل وصياغة المناهج التقليدية والتي قامت على ضوابط ومعايير ساهمت في تحديد بعض المفاهيم اللغوية وإبراز رؤية جديدة للمسائل اللسانية الحديثة وبخاصة السماع اللغوي ودوره في بناء أسس الفصاحة اللغوية والذي تجلى في تحديد رؤية جديدة لمحتوى المسموع في الدرس اللغوي القديم ليتقاطع الدرس اللساني الحديث مع السماع اللغوي على ضوء الموروث اللغوي القديم إضافة الى كشف نقاط التماس بين المسموع وتأثره بمعايير الفصاحة قديما وحديثا.

Article info

Received
12/01/ 2021
Accepted
17/ 01/ 2024

Abstract :

This study aims to reveal the concept of eloquence through the induction carried out by Abd al-Rahman Haj Saleh of the ancient linguistic heritage and to identify the foundations that he approved through reformulating and formulating traditional curricula, which were based on controls and standards that contributed to identifying some linguistic concepts and highlighting a new vision for modern linguistic issues, especially listening. The linguist and his role in building the foundations of linguistic eloquence, which was manifested in defining a new vision of the audio content in the ancient linguistic lesson so that the modern linguistic lesson intersects with linguistic listening in the light of the ancient linguistic heritage, in addition to revealing the points of contact between the auditory and its impact on the standards of eloquence, old and new.

مقدمة:

قامت الدراسات اللغوية القديمة على جملة من الأسس التي تحدد معالمها في ميدان الفصاحة ليسهم ذلك في بناء قواعد تضبط اللسان العربي من خلال تحكيم السماع في لغة العرب .

ومما لا شك فيه أن السماع اللغوي يعد أحد الضوابط اللغوية لدى النحاة القدامى الذين قعدوا للغة العربية وفق معايير تمكنهم من جمع اللغة العربية وحصرها وفق منهج معياري وصفي مما أسهم في إثراء أساليب اللغة العربية واتساع دائرة المعاجم من حيث الألفاظ وقد عد السماع اللغوي مقياسا لسانيا لتمييز الفصيح من الملحون مع اقصاء بعض المسموع عن العرب ليشكل ذلك عتبة في طريق اتساع العربية ومرونتها وقصرها عن تناول بعض ألفاظ اللهجات الفصيحة ومن هذا المنطلق أعاد اللساني عبد الرحمان حاج صالح صياغة مفهوم السماع اللغوي انطلاقا من الرصيد التراثي اللغوي الذي أسسه الأولون مع دراسة تلك النصوص دراسة لسانية مستفيضة وبذلك يكون حاج صالح قد أعاد رسم معالم وأسس السماع اللغوي من جديد كدراسة لسانية حديثة على ضوء الموروث اللغوي القديم،فهل استطاع العلامة عبد الرحمان حاج صالح الربط بين مفهوم السماع اللغوي والفصاحة ؟ وما هي الأسس والضوابط التي أقرها في علاقة الفصاحة بالسماع؟وما الذي أضافه في القراءة اللسانية الحديثة لمفهوم الفصاحة والسماع ؟ وسنحاول أن نجيب على هذه الأسئلة على ضوء المنهج التحليلي المقارن.

1.مفهوم السماع اللغوي من منظور عبد الرحمان حاج صالح:

تعددت مفاهيم السماع اللغوي عند أهل النحو ونجد أن أول من تناول السماع اللغو هو ابن فارس(ت395 ه) ثم جاء من بعده من أبانوا عن معاني ودلالات منهج السماع اللغوي وكشفوا عن أصوله وضوابطه بعدة مفاهيم ومن بين هؤلاء العلماء ابن الأنباري (ت304ه) الذي عرف السماع بقوله «ما ثبت من كلام من يوثق بفصاحته،فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن،وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم،وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه،وبعده الى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا عن مسلم أو كافر فهذه ثلاثة لا بد في كل منها من الثبوت».[1]غير أن يحي الشاوي خصه بفصاحة القرآن والكلام المستقيم فقال فيه «والمراد به الكلام الذي أُتُفق على فصاحته ككلام الله ونبيه»[2]الكريم،فباستقرائه للنصوص القديمة استطاع أن يميز الفصاحة بتعلقها بخير ما وصل للعرب في اللغة وهو القرآن والحديث ولاشك في فصحتهما من جميع المناحي اللغوية.

وانطلاقا من التراث اللغوي العربي القديم عرفه عبد الرحمان حاج صالح بقوله «ولا بد من التنبيه على أن السماع هو مشاهدة لا للكلام فقط بل لكل ما يجري في التخاطب من كلام وحركات وإيماء وكل ما يوجد فيه من قرائن في حال الحديث كما يقول سيبويه(ت180ه)،ثم الكلام هو ألفاظ ومعان وأغراض زيادة على ذلك يقصدها هي بالذات المتكلم وكل هذا يشاهده ويسجله الباحث أو يستنتجه من حال الحديث والقرائن».

وأسند ذلك بقول ابن جني(ت392ه) بهذا الصدد «ولم يعبثوا بالالتباس لأنهم قد يصلون الى إبانة أغراضهم بما يصحبونه الكلام مما يتقدم أو يتأخر بعده وبما تدل عليه الحال وإنما يعتمد في تحديد الغرض بما يصحب الكلام من أوله الى آخره أو بدلالة الحال فإن لها في إفادة المعنى تأثيرا كبيرا وأكثر ما يعتمدون في تعريف ما يريدون عليها»[3]من خلال إجراء العملية التجريبية الحضورية للمشافهة والسماع

والسماع مشاهدة وذلك عام ينطبق على كل العلوم وهو معمول به في زماننا فيما يخص التجارب في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وغيرها من العلوم فيمكن للعالم أن يعيد التجربة إن شك في تجربة غيره[4]ليبين صحة ما يريد تحليله من المسموع.

2.علاقة الفصاحة بالسماع اللغوي:

كان العلماء العرب القدامى يكتفون بفصاحة المأخوذ عنه بعد أن يكونوا تأكدوا من ذلك بوسائل مختلفة وعرض ذلك على العلماء في غالب الأحيان فالمهم همنا هو كون المسموع عنه موثوق تماما بعربيته أما الشعر فلا يحتاج من حيث هو كذلك الى أن يذكر اسم الشاعر ولا اسم الناقل لان السماع عند القدامى هو سماع يتحقق ويصير موضوعيا بالجماعة كما قلنا:لا يمكن أن يثبت السماع ثبوتا لا يرد إلا بمجيئه من أكثر من وجه.[5] فكيف يكون اذن استقراؤهم ناقصا وقد مسحوا شبه الجزيرة العربية مسحا كاملا(في رقعتها الفصيحة)[6]فاحتوائهم لكل المسموع في ربوع الجزيرة العربية يمكنهم من تمحيص الجيد من الرديء في الألفاظ الفصيحة.

أما التأكد من اسم الشاعر فيما يخص الشعر فإن كان ذلك غير ضروري لإثبات السماع الفصيح فإنه جد ضروري للتميز بين الصحيح والمصنوع وبين المنحول وغير المنحول[7] من خلال ضرورة الأخذ عن ثقات العرب وفصحائهم من الشعراء الذين يتم الاحتجاج بهم،"فيحتج بالكلام العربي لغرضين

- غرض لفظي يدول حول صحة الاستعمال من حيث اللغة والنحو والصرف
- وغرض معنوي لا علاقة له باللفظ"[8]

إذ أن الفصاحة المقرونة بالسماع بالاستعمال اللغوي اليومي والدلالة التي تنتج من ذلك الاستعمال

وردا على اتهام بعض المستشرقين لرواة العرب بالكذب فيما يخص دواوين الشعر العربية رد عبد الرحمان حاج صالح بقوله «فالذي قد عرفناه الى الآن في هذه الدراسة أن نزاهة الذين رووا الشعر من علماء العربية لا يمكن أن تلحقهم مثل هذه التهمة الفظيعة لأنهم كما سبق أن قلنا لا يقبلون إلا المسموع الذي ورد من أكثر من وجه والذي يمكن التأكد من ذلك لدى فصحاء العرب مادامت الفصاحة السليقية قائمة»[9] ففي قوله لهذا تأكيد على بيان علاقة الفصاحة بالسماع اللغوي لدى رواة العرب،فالسماع اللغوي "عملية صعبة فهو مجموعة من الاعمال تبدأ بالتأملات،وتنتهي بالكشف عن القواعد"[10]ومن المعروف أن القياس كمصدر لفعل قاس يقيس يدل على اجراء المتكلم في كلامه لمفردة أو تركيب على مثال من مُثل كلام العرب ولو لم يسمع ذلك منهم أو من فصيح وربما لم ينطق بذلك أحد في أي وقت ولكنه يجريه على قياس كلامهم والنحو العربي وضع لتدوين ما لم يكن مدونا مما يجوز من العبارات ومن ثم الأصول لذلك قال ابن جني« إن الغرض فيما ندونه من هذه الدواوين ونثبته من هذه القوانين إنمت هو أن يلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها ويستوي من ليس بفصيح ومن هو فصيح»[11]لعلاقة بين الفصاحة والسماع والقياس فهي ثلاثية لتمييز كلام العرب الصحيح من الرديء.

ولأن القدماء قد ذهبوا الى أن اللغة العربية تجري في دماء العرب فقد أخذوا اللغة عن العرب حتى عن الأطفال والمجانين والنساء،ولكنهم -والحق يقال- شعروا بوجود مستويات مختلفة في اللغة فتحدثوا عن الفصيح والافصح،والأقل فصاحة،والرديء،والمذموم،والشاذ[12]فالأخذ من أفواه العرب انما يحيل الى تمييز المسموع وترتيبه في درجات للفصاحة

وأما في صحة المسموع من الشعر لاستقراء الفصاحة"فلابد من التأكد كما قال ابن سلام الجمحي(ت232هـ) «من وجود النص عند فصحاء العرب والتأكد من معرفتهم أو عدم معرفتهم للبيت المريب أو القصيدة المشكوك فيها بل وإجماع علماء القبيلة على صحة ذلك وصحة نسبته،وحدد ابن سلام هؤلاء العرب بنسبته إياهم الى أهل البادية»[13]الذين يكونون سليمي اللسان وفصاحتهم صافية فالنحاة"كانوا يسمعون كلام العرب في مواطنه مشافهة في الكثير الغالب من صرامة المعايير التي وضعت لقياس هذه السلامة لأن هذه المقاييس انصبت على نقد خارجي للرواة بطريق النقل والرواية"[14]

فمواطن العرب التي يقطنونها تعد"مصدر السماع الوحيد المجمع عليه من العلماء هم في ذلك فصحاء العرب(حضرا وبدوا)،ومن سمع منهم من العلماء فهذا مرجع موثوق والشعر المسموع عنهم أي الموثوق بعربيتهم ثابت لا يرد"[15]فالموثوق بعربيتهم هم الفصحاء من العرب أصحاب السليقة واللسان السليم، فقد قام منهج السماع عن كلام العرب على ركنين أساسيين:هما تحديد المكان والزمان للإستشهاد أما من حيث تحديد المكان فقد اعتمد على القبائل التي تقطن قلب الجزيرة العربية،فهي القبائل العربية التي يحتج بلغاتها دون غيرها،واستبعد من الاحتجاج لغات القبائل المنتشرة على محيطها والقريبة من الأعاجم[16]،لمخالطة اللسان العربي للعجمة السائدة هناك.

3تأثير السماع في ميدان الفصاحة عند العرب:

اعتمد النحاة على مصادر تمكنهم من تحسين العربية والمحافظة على لبها من اللحن والفساد فكان"السماع هو الأصل الأول في مباحث النحاة المتقدمين وفي تنفيذاتهم فقد كان أداة جمع اللغة واستقصاء قوانين بنائها وكان للنحاة في ذلك سبيلان:

1- النقل أو الرواية

2- مشافهة الأعراب في البوادي[17]

فسماع مرويات العرب الأقحاح ومشافهتهم سبيل لتنقيح ألفاظ العربية لصناعة النحو وما يلحق ذلك ففي تعريف ابن جني للنحو نجده يربط بين مفهوم اتباع كلام العرب وصفاته وتعلقه الشديد بصفة الفصاحة«هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية من أهلها في الفصاحة فينطق بها وان لم يكن منهم»[18] فمماثلة واتباع كلام العرب يخلصان بالمتكلم الى السلامة اللغوية والبعد عن التكلف واللحن كما خلق ذلك مجالا سمي بالنحو العربي له أحكام وقواعد تضبط اللسان العربي،فقد ظهر اللحن في قراءة القرآن(كما ظهر في التخاطب اليومي)واستعظم ذلك المسلمون فكيف لا يمكن أن يقلق أحد من رعاة الامة - القلق الشديد – ولا يحرك ساكنا وهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم،بلي قد حصل ذلك منذ عهد بعيد ويدل على ذلك ما روي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من حثه على تجنب الخطأ اللغوي الذي يشوه القراءة لكلام الله وكلام نبيه الكريم وما أبداه من الاهتمام باللغة العربية[19]فبوادر ظهور النحو كانت نتيجة لشيوع اللحن في المجتمع العربي ما أدى الى النفور لمشافهة الاعراب والفصحاء لإنقاذ العربية من ذلك المأزق وقد "حدث حادث عظيم في تطور النحو وهو الشروع في السماع المنتظم والتدوين الواسع لكلام العرب اللذين نزل القرآن بلغتهم،ولم تتغير لغتهم وحصل ذلك بما قام به أبو عمر ابن العلاء من التجوال الواسع جدا في شبه الجزيرة العربية لهذا الغرض نفسه وسرعان ما نظم اليه العدد الكبير من الباحثين

الشبان مثل الخليل(ت170ه) ويونس(ت182ه) والأصمعي (ت216ه) وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري(ت215ه) وغيرهم فهذا كان سببا حاسما في توسيع دائرة البحث اللغوي"[20]التي طالت جميع ربوع الجزيرة العربية فمن خلال ذلك السماع تم التقعيد للنحو العربي الذي نراه اليوم.

يقول سعيد المصري في أهمية النحو:

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تعظمه إذا لم يلحن

فإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الألسن[21]

ففي هذا البيت إشارة لأهمية النحو في تقويم اللسان من اللحن وذلك النحو إنما أُخذ سماعا.

فنقطة التحول التي أحدثها سيبويه الذي ذكر ما "يحتج به من كلام العرب إلا أن الذي يلفت النظر في ذلك هو العدد المهول من الذين سمع منهم وبالتالي عدد النصوص التي سمعها، ولا تنحصر هذه النصوص في عدد ما سيسمى بعده بالشواهد،فالشواهد عنده حجج يدلي بها وليست كل ما سمعه فقط[22]نظرا لسعة المسموع من الفصحاء وبواديهم

أما القرآن الكريم فقد اشتهر بين الناس أن اختلال النظام اللغوي للعربية أدى ببعض المسلمين الى ارتكاب الخطأ في أداء النص القرآني وأن هذا كان السبب الرئيسي في ظهور النحو[23] فالسماع كان لبنة أساس لعلم النحو من خلال غربلة اللسان العربي لحفظ الفصاحة العربية ونقطة انطلاق للتقعيد النحوي في اللسان العربي،فعلوم الأدب ستة: اللغة والنحو والصرف،والمعاني،والبيان،والبديع والثلاثة الأولى لا يستشهد عليها إلا بكلام العرب.[24]الذين يوثق بعربيتهم ولا تخالط ألسنتهم عجمة،"فالذين نقلت عنهم العربية وبهم أقتدي،وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومضعمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين"[25] الذين حافظوا على لغتهم من اللحن ويمكن أن نبين علاقة السماع بالفصاحة عند عبد الرحمان حاج صالح من خلال ما يلي:

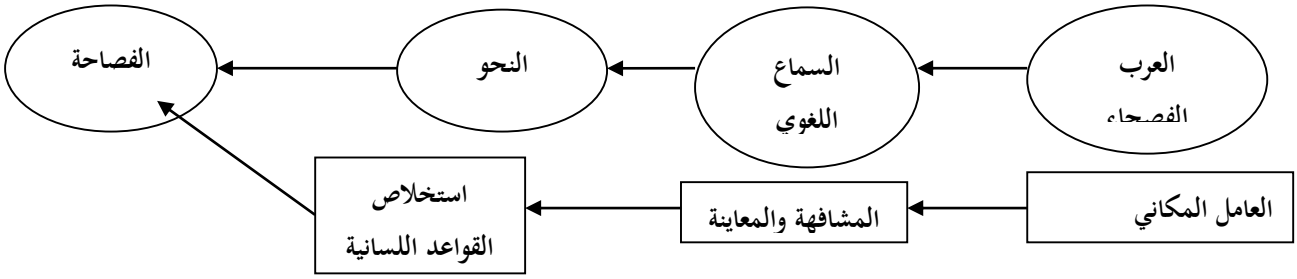

شكل1

4.محتوى السماع اللغوي وصفاته لدى العلماء العرب:

بحث الرواة العرب وعلماء العربية في ربوع الجزيرة العربية قاطبة في صفات اللسان العربي فأنشئوا مدونة ضخمة لكلام العرب كانت"أعظم مدونة لغوية شهدها تاريخ البشرية،فالقبائل العربية التي أُخذ عنها هذا المسموع العملاق كانت تغطي شبه الجزيرة كلها في الجاهلية،وكان الأخذ لما روي واشتهر عند فصحاء العرب من شعر الشعراء الذين وصلت منهم إلينا البيت أو البيتان أو الدواوين الكبيرة"[26] "فكان القرن الأول للهجرة بداية الانطلاق الى جمع

مواد اللغة عن طريق الرواة واللغويين يحثهم على ذلك قول عبد الله ابن عباس «إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب»[27]فنتج عن ذلك نصوص تفرعت الى نوعين.

1.4.نصوص محفوظة:

المنقولة شفهيا في النصوص التي ينقلها الناطقون باللغة العربية بعضهم الى بعض وجيلا بعد جيل ولم يأخذها العلماء مباشرة من مصدرها الأصلي أي من أصحابها الذين أنشأوها هم بأنفسهم،فهي نصوص نقلت على صورة واحدة إلا أن تأدية الناقلين لها كانت مختلفة لاختلافها في الأصل واختلاف المنشأ اللغوي للناقل(في الشعر مثلا) وهذا الاختلاف يقربها من النصوص الحرة أما مصدر هذه التأدية فلا يمكن أن يكون إلا الناطقين العرب الفصحاء إلا النص القرآني لأن القراءة سنة ويدخل في هذا النوع من النصوص

- النص القرآني من خلال القراءات المتوارثة من جيل للآخر
- الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين الذي توارثه العرب[28]

فهذه المحفوظات إنما تتناقل الينا من خلال التواتر المسموع من جيل الى اخر ويحدث فيها بعض الاختلال حتى وان نقلت من مصادرها الفصيحة"فالرواة المختلفون إنما أخذوه من افواه العرب الذين يحفظون الأشعار"[29]ونقلت عنهم من شخص لآخر ومن قبيلة الى أخرى أي أنها لم تؤخذ من مصادرها الأصلية أي الذي تلفظوا بها لأول مرة.

2.4.النصوص الحرة العفوية:

وهي نصوص سمعها اللغويون من أصحابها مباشرة فليست بكلام محفوظ ومنقول حفظه الناس من غيرهم وليس بتأدية لكلام سبق أن قيل،فأصحابها هم الذين تكلموا بها عفويا ولم ينقلوها عن غيرهم ،وأكثر هذه النصوص هي من الكلام المنثور وفيها على كل حال الكثير من الشعر وبعض الابيات سمعت مع كلام آخر منثور وكذلك العدد الكبير من القصائد سمعت ودونت منذ بداية عصر التدوين كقصائد شعراء بني أمية ومن جاء بعدهم[30]وفي نفس السياق يذكر ابن الأنباري تقسيما آخر وسمه بالنقل اذ يقول فيه«اعلم أن النقل ينقسم الى قسمين تواتر وآحاد فأما التواتر فلغة القرآن وما تواتر من السنة وكلام العرب،وهذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم.

وأما الآحاد فما تفرد بنقله بعض أهلا للغة ولم يوجد في شرط التواتر وهو دليل مأخوذ به»[31]

فعبد الرحمان حاج صالح هنا يستقرء آراء علماء النحو في محتوى المسموع الذي اخذوا منه ويضع تقسيما مشابها لتقسيم أبي البركات الأنباري ابتغاء تحديد مادة المسموع ومصادرها عند العرب الذين أُخذت منهم تلك المدونة الواسعة و"المصدر الوحيد وليس هناك مصدر آخر غيره لكل ما وصل الينا من المسموع ممن كان يوصف بالفصاحة كما فهمها العلماء القدامى هم فصحاء العرب وهم أولئك العرب الموثوق بعربيتهم الذين عاشوا في عصر السماع والتدوين،فهم الذين سمع منهم الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين وهم الذين سمع منهم النحاة واللغويون آلاف الالآف من العبارات في مخاطبتهم العادية وغير العادية."[32] غير أن عبد الرحمان حاج صالح أولى أهمية لمحتوى الفصيح المسموع عن العرب فجعل فيه مسألتان نقلا عن كتاب سيبويه

1-التقبل لكل العبارات الجامدة وتدوينها كما وردت على ألسنة فصحاء العرب وهي جميع أمثالهم وما يجري مجراها (كما قال سيبويه) أي العبارات التي تتركب بألفاظ تركيبا خاصا ولا تأتي في الاستعمال إلا بهذه الصيغة ولا يضبطها ضابط واحد لخصوصيتها في ذاتها وهي الأساليب الجامدة التي تختص بها لغة معينة

2-التقبل لكل عبارة تكون خارجة عن الذي يضبط مثلها وهي مع ذلك كثيرة في الاستعمال عند فصحاء العرب وقد تكون هي المطردة في الاستعمال لا يوجد غيرها ويسمى سيبويه هذا النوع بالنوادر وهو عند المتأخرين نوع من السماعي في مقابل القياسي[33] فالمسموع عن العرب كان عبارة عن مدونة عملاقة تضم الشعر بدواوينه ومحفوظه ومصادره الأصلية كما شمل الامثال والمقامات وشمل القرآن والحديث النبوي الشريف وكل لفظ فصيح سواء كان متدولا أو شاذا،فلم يحاول"النحاة القدماء الفصل بين الشعر والنثر في تقعيدهم القواعد واستدلالهم على صحتها با انهم في كثير من الأحيان كانوا يبنون قواعدهم على الشعر وحده وللشعر لغته الخاصة به[34]

وما يدل على سعة المسموع والمنقول عن العرب هو الاستشهاد بأشعار الكفار العرب الذي ذكره السيوطي في كتابه الاقتراح فقال فيها"اعتمد في العربية على أشعار العرب،وهم كفار لبعد التدليس فيها،كما اعتمد في الطب وهو في الأصل مأخوذ عن قوم كفار كذلك،فعلم أن العربي الذي يحتج بقوله لا يشترط فيه العدالة،نعم تشترط في راوي الحديث[35]فانطلاقا من قاعدة السيوطي (ت911ه) الشاملة وآراء علماء النحو ممن اعتمدوا كبر سعة المسموع حدد عبد الرحمان حاج صالح المسموع في المحفوظ و الحر العفوي من النصوص كدليل على اتساع كمية المدونة العربية.

5.مبادئ السماع عند عبد الرحمان حاج صالح:

إن المسموع الذي حلله علماء اللغة العرب يعد مدونة لغوية قائمة بحد ذاتها وهي نتاج بحث وتحليل جغرافي لساني للمناطق التي ينتشر بها العرب غير أن هذا الأخير يعتمد على ضوابط وخصائص تحدد اطرافه ومحتواه وكيفية البحث فيه ان كانت ذاتية أو بالإجماع "فبعض أهل الكوفة خاصة كانوا يباهون بما وجدوه من غريب العبارات والاستهتار بالغريب من الشعر أو الكلام المنثور فيضيفون الى المسموع ما لم يقع عليه إجماع في ثبوته"[36]غير أن عبد الرحمان حاج صالح أضاف رؤية جديدة لمبادئ السماع "في حقبة التحري التي انتهت بسيبويه ومن سبقوه في ذلك فهم عاشوا في زمان الفصاحة السليقية وقد لخصها فيما استنتجناه في المبدئ الاتية:

1.5. السماع من فصحاء العرب:

فالسماع من فصحاء العرب وحدهم إذا تحقق العلماء من فصاحتهم كان كافيا كحجة أي كمرجع علمي ويكفي أن ينسب العلماء ما سمعوه الى هاؤلاء لتثبيت الرواية[37] فالشرط هنا هو ربط المسموع بالقائل "فقد نظر النحاة الى الأعراب الذين يأخذون عنهم اللغة في ضوء الاعتبارات الجماعية المتعلقة بالقبيلة ومكانها وزمان فضلا عن اعتبار فردي يعنى بمدى ثقة المنقول عنه،لقولهم:ويشترط أن يكون ناقل اللغة عدلا،رجلا كان أو امرأة،حرا كان أو عبدا،كما يشترط في نقل الحديث لأن بهما معرفة تفسيره وتأويله فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله وإن لم تكن في الفضيلة من شكله فإن كان ناقل اللغة فاسقا لم يقبل نقله

وتؤخذ اللغة اعتيادا كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات وتؤخذ تلقنا من ملقن وتؤخذ سماعا من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة[38]

فاللغة السليمة إنما تؤخذ ممن سلمت ألسنتهم من اللحن وجادت قرائحم بما يقبله العرب في لسانهم.

2.5.الاجماع على المسموع:

فإذا أجمع العلماء في ذلك الزمان على ذلك ثبتت صحته ككلام نقل من أفواه أولئك العرب وثبت انتماؤه إلى اللغة العربية الفصيحة وقد تثبت نسبته الى قائله إذا أجمع على ذلك الرواة من فصحاء العرب ولا تثبت بالضرورة وبالتمام الصورة الأصلية[39]فيحدث ما يسمى بالتناقل والتواتر ثم الاتفاق على صحة المسموع.

3.5. التحقيق من صحة ما يُنقل:

أي أن يكون ي استطاعة أي باحث التحقيق لما ينقله الباحثون الآخرون وهو أعظم الأصول التي يعتمد عليها علماء هذا العصر فهذا يفسر أن يكتفي سيبويه وأصحابه بقولهم: «(سمعت) و(أنشدني)»[40]،فهو هنا يبرر لصحة ما سمعه من سبقه وهم أهل الفصاحة باعتبارهم مرجعا موثوقا ناقلا عن مراجع موثوقة سبقتهم من خلال المشاهدة الحسية.

4.5. ثبوت حجية المسموع:

فالسماع عند علماء النحو الأوائل إنما يتم من خلال ثبوت الحجة فيما سمعوه من القائل سواء كان الكلام شعرا أو نثرا "فيقول ابن السيرافي « فهذا الذي رأيته من ديوانه (العجاج) وليس هذا بمفسد لحجة سيبويه لأنه لم ينقل هذه الشواهد من الدواوين إنما سمعها والعرب بعضهم ينشد شعر بعض،فإذا غير هذا عربي يحتج بقوله صار كأنه هو القائل وليس يجوز أن يفعل مثل هذا رجل عالم لأن سيبويه لقي من قوله حجة ولم يأخذ من الصحف،فإذا سمع من يجوز أن يكون عنده حجة في كلامه نقل عنه وإن لم يره أهلا لذلك تركه»[41]فثبوت الحجة في الكلام المسموع ضرورة لا بد منها عند أهل التحري للأخذ بذلك المسموع الذي سمعوه فإن سقطت حجيته تركه الباحث وبحث في غيره

وأما في ثبوت حجة المسموع فإن "الثبت فهو الدليل المستخرج من المسموع نفسه بتدخل الباحث ولجوءه الى العقل"[42]

6.اللهجات من منظور عبد الرحمان حاج صالح:

قبل الخوض في اللهجات عند عبد الرحمان حاج صالح وجب علينا تعريف اللهجات بصفة عامة و"التي تعد مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي الى بيئة خاصة،ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض وفهم ما قد يدور بينهم من حديث[43]أما علم اللهجات فهو"علم يدرس الظواهر والعوامل المختلفة المتعلقة بحدوث صور من الكلام في لغة من اللغات أو هو علم يدرس اللهجات لاعتبارها أنظمة لغوية تنشأ وتتفرع عن لغة أو لغات أخرى"[44] فاللهجات عبارة عن خصائص تتحلى بها كل لغة على خلاف للغات الأخرى وقد تشترك مع لغات أخرى في بعض تلك الخصائص.

ونجد عبد الرحمان حاج صالح يقدم تصورا لطبيعة دراسة اللهجات في عصور الاستشهاد ذاكرا فيه استحالة "أن العلماء القدامى لم يتفطنوا لوجود لغة أدبية مشتركة بين العرب والى أن لغة التخاطب كانت تختلف باختلاف اللهجات أو أنهم لم يفصلوا بين اللغة الفصيحة ولغة التخاطب اليومي السائدة بين القبائل[45].

أما ما كان يسمى عند علماء اللغة {باللغات}أو {لغات العرب}فلم يكن مجموعها يكون مجموعة من اللهجات يختص باستعمالها التخاطب اليومي العادي هو وحده فهي تكون حسب زعمهم لهجات قائمة بأنفسها ويقابلها اللغة التي نزل بها القرآن وهي عندهم لغة الشعر الأدبية[46] التي يتناقلها أبناء البيئة الواحدة،وقد يعترض أحد الناس على هذا الزعم بقوله أن الفرق بين لهجة ولغة في الأدب،اللغة هي التي لها أدب أي أن الأدب مقياس للتفرقة وهذا الزعم مردود فإن لهجات الزنوج والهنود الحمر ولهجات الأقوام المتمدنة لها أدبها شعرها ونثرها وقصصها وأمثالها وأساطيرها وأغانيها[47]فلكل لهجة ولغة أدب خاص بها يتميز عن سائر اللهجات الأخرى.

وبالنظر للفروق بين اللغة واللهجة فإن"مقصود سيبويه من كلمة لغة لا يشمل لهجة بأكملها بل عناصر لغوية خاصة ما يصرح به في قوله هذا: وبعض العرب يقول خيف وبيع وقيل فيُشمّ إرادة أن يبين أنها فُعل وبعض من يضم يقول

بوع وقول وخوف يتبع الياء ما قبلها"[48]. فالاختلافات بين الالسن تشير الى عدم الاتفاق على لغة معينة مشتركة كما ذكر عبد الرحمان حاج صالح.

7.طرق استعمال اللهجات وكيفياتها:

أما الحديث عن سبل استخدامات اللهجات اوضحه عبد الرحمان حاج صالح من خلال"أن الكيفيات في استعمال العرب لوحدة لغوية معينة قد تكون لهجية وغير لهجية وليست بالضرورة خاصة بإقليم معين أو قبيلة معينة والقصد من ذلك أنه قد ينطق بها الكثير أو القليل من العرب الفصحاء من قبيلة معينة أو أكثر من قبيلة و أيا كانت قبيلتهم أو إقليمهم"[49]فقد كان توسع اللون التداولي في المجال الجغرافي للمجتمع الشامل قد أدى انطلاقا من هذا اللون وبواسطة مسار تبايني الى اللهجات الإقليمية وان معظم المنظومات اللسانية التي فرض تعميمها على مجتمعات مركبة تشغل مجالا جغرافيا ذا مكانة مهمة"[50] من حيث كون الوحدات اللغوية غير مخصصة بإقليم معين،"ولا تستند اللهجات في توزيعها على التوزيع الجغرافي فحسب بل هناك عوامل تساهم في تبديلها كالتحرك الجغرافي فالناس ينتقلون من مكان لآخر يحملون معهم لهجاتهم وان عدلوا منها لتتوافق مع مرور الزمن مع بيئتهم الجديدة"[51] وما يدل على اختلاف الكيفيات اللهجية ما استشهد به عبد الرحمان حاج صالح«واعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينصب بعض ما يميل صاحبه ويميل بعض ما ينصب صاحبه وكذلك من كان النصب من لغته لا يوافق غيره ممن ينصب فإذا رأيت عربيا كذلك فلا ترينه خلط في لغته ولكن هذا من أمرهم»[52] فهو يشير الى قبول اختلاف الفروقات في اللسان الواحد

كما يشير أيضا الى الفرق بين اللهجة واللغة فيشير الى أن"لفظة لغة هي أعم معنى من الاستعمال اللهجي اذ قد تطلق على كيفية في الاستعمال أو الأداء غير خاصة بجهة معينة"[53] ولنفترض أن شخصين ينتميان الى الإقليم ذاته،بل ويسكنان في الحي ذاته،بل هما أخوان يعيشان في بيت واحد،ولنفترض أنهما حاصلان على مستوى تعليمي واحد ومع ذلك تبقى هناك فروقات لهجية بينهما كل واحد منهما يتكلم اللغة بطريقة خاصة تميزه عن أخيه وعن جاره وعن أصدقائه وزملائه هناك لهجة فردية كل واحد منا يتكلم لغته بطريقة خاصة به[54] لها سمات مختلفة عن غيره، "وقد فهم الكثير من المحدثين كلمة لغة في استعمال العلماء القدامى الأوائل لها في جميع النصوص التي وردت فيها منسوبة الى قبيلة أو إقليم أن المقصود هو لهجة من لهجات العرب كلهجة تميم أو لهجة أهل الحجاز أي اللهجة المنسوبة إلى

هؤلاء كاملة لا أداء خاصا بعنصر من بعض العناصر"[55] المكونة للغة المُتحدث بها"إذ إن السلوك الفردي إزاء اللغة يضيف إليها قدرا خاصا وهذا القدر قد يخفى على المتكلمين الاعتياديين ولكنه لا يخفى على عالم اللغة فهو يتبينه عبر الأصوات،ونوع المفردات والتراكيب بما يؤكد أن الاختلاف في المستويات اللغوية واقع بين أفراد الشعب الواحد"[56] والذين يقطنون الرقعة الواحدة.

8.التواصل باللهجات العربية:

رغم اختلاف اللهجات العربية في الإقليم الواحد وفي الشعب الواحد إلا أن تلك الاختلافات لم تمنع عملية التواصل فيما بينهم" فهذه المجموعات من الصفات اللغوية الخاصة لم تمنع التفاهم بين القبائل إذ لم يصرح أي واحد ممن عايش فصحاء العرب في ذلك الزمان الغابر من علماء اللغة وغيرهم باستحالة التفاهم بين العرب بسبب الاختلاف اللهجي فكل ما هناك أنهم نصوا على اختلاف في الأصوات و في صيغ الكلمة أو مدلولها وذكروا عددا قليلا من المفردات اختصت بها بعض القبائل وذلك بالنسبة الى العدد من للمفردات التي لم يشيروا أبدا الى أنها لغات"[57] اما بخصوص وضع التواصل بين العرب فقد "زعم مولى ابن عون قال: كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء،فكان إذا دعاه قال« ياضمياء» بالضاد،فقال ابن المقفع(142ه) قل« يا ظمياء فناداها يا ضمياء فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثا قال له: أهي جاريتي أم جاريتك؟»[58] فابن المقفع والرجل كلاهما يتواصل مع الاخر بطريقة يراها هي الأنسب للحوار وقد "تكون اللهجة شديدة التباين بالنسبة الى غيرها من اللهجات حتى يمتنع التفاهم بين أهلها وغيرهم من أصحاب اللهجات الأخرى المنتمية الى نفس اللغة إلا في القليل وقد تكون هذه الاختلافات طفيفة فلا يصح حنئذ أن تسمى مجموعها لهجة بل تنوعا من نفس اللغة"[59]

أما بخصوص اختلاف الأصوات النطقية في اللغة الواحدة "فهناك بعض الأمثلة على تغير العين الى ألف ويذكر الفراء (ت207ه) اقتباس ابن السكيت(ت244ه) في القلب أنه النهج العام للهجة ويضرب أمثلة نحو دأني (دعني).تألى الله (تعالى الله)"[60]كما أن العرب تختلف في أحوالها في تلقي الواحد منها لغة غيره فمنهم من يخف ويسرع قبول ما يسمعه ومنهم من يستعصم فيقيم على لغته البتة ومنهم من اذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به،ووجدت في كلامه ألا ترى الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قيل« يانبيء الله،فقال لست بنبيء ولكنني نبي الله» وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أنكر الهمز فرده على قائله[61] فالاختلاف هنا اقتصر على صوت واحد أدى الى رفض رسول الله لقول الأعرابي فلم يستحسن قوله نبيء فتغير الألفاظ هنا يتلخص في تغير "وحدات من العربية أو أداء خاص بوحدة معينة لا يوجد في استعماله ولا يدل هذا النفور على عجز الأعرابي"[62]إذ لم تكن لهجات القبائل البدوية بالجزيرة العربية بعيدة الاختلاف من الوجهة اللغوية بحيث لا يمكن التفاهم حتى بين القبائل المتباعدة بعضها عن بعض في السكن والجوار إذ أن أغلب الفروق فيها كانت ترجع الى طبيعة اختلاف الأصوات والقوالب والمفردات[63] وقد جاء في كتاب النوادر لأبي زيد بن أوس"يقال «قد غَمِقَتْ عيني غمقا إذ نَديتْ وكل ما ابتل فقد غمق قال أبو حاتم فقد غُمِقَتْ وكل ما ابتل فقد غُمِقَ برفع الميم» قال أبو الحسن «هذا الذي قال أبو حاتم غلط والصواب الأول لأنه يقال غَمِقَتْ غمقاً فهي غَمِقَت مثل فَرِقَتْ فرقاً فهي فرقة»[64] وهذا خير دليل على اختلاف الأصوات في التواصل بين العرب وقبائلهم غير ان اللغة تبقى واحدة فالتغير انما هو تغير في الوحدات المكونة للألفاظ.

خاتمة:

بعد التطرق لموضوع تأثير السماع اللغوي في الفصاحة واللهجات عند عبد الرحمان حاج صالح وعلاقة الفصاحة باللهجات تبين أن الموروث اللغوي القديم قائم على هملية السماع والمشافهة المباشرة إلا أنه يخضع لمجموعة من المعايير التي تحدد صحته وتميز اللهجات عن بعضها البعض ومن أهم النقاط التي تم التوصل إليها ما يلي

- السماع إجراء حسي يخضع للتجربة وما يتصل بها أثناء الحديث
- الأخذ بالفصاحة يتعلق بالمصدر والجنس العربي والسلامة اللغوية
- مواطن العرب عامل أساسي في تحديد صحة المسموع
- النقل اللغوي يجب أن يتعلق بمشافهة أصحاب البوادي والحضر بشرط السلامة النحوية
- تفرد عبد الرحمان حاج صالح بمجموعة من المبادئ والمقاييس التي تميز الفصاحة
- السماع عامل أساسي في تحديد الفصيح من لهجات العرب
- اللغة الأدبية المشتركة مجرد أسطورة لدى عبد الرحمان حاج صالح
- اللهجات عبارة عن متغيرات صوتية تلحق الألفاظ المكونة للغة الأم.

الهوامش:

[1] جلال الدين السيوطي،الاقتراح في أصول النحو،دار البيروتي،ط2006،2،ص39

[2] يحي بن محمد أبي زكريا الشاوي المغربي الجزائري،إرتقاء السيادة في علم أصول النحو،دار الأنبار للطباعة والنشر،مطبعة النواعير،العراق-بغداد،ط1990،1،ص47

[3] عبد الرحمان حاج صالح،منطق العرب في علوم اللسان،موفم للنشر،الجزائر،د.ط،د.ت،ص97

[4] عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،موفم للنشر،الجزائر2012،ص259

[5] نفس المرجع،عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ،ص292-293

[6] ينظر نفس المرجع ،ص323

[7] نفس المرجع،ص292

[8] سعيد الأفغاني،في أصول النحو،المكتب الإسلامي بيروت دمشق1987م،ص16

[9] نفس المرجع،ص294

[10] رشيد حليم،بين منهجي السماع العربي والوصف الغربي دراسة تأصيلية مقاربتية في أسس المنهجين،مجلة الآداب واللغات جامعة ورقلة-الجزائر- العدد الرابع،ماي2005،ص373

[11] ينظر مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،منطق العرب في علوم اللسان،ص157

[12] رمضان عبد التواب،فصول في فقه العربية،مكتبة الخانجي بالقاهرة،ط1999،6،ص96

[13] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ،ص311

[14] علي مزهر الياسري،الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه،الدار العربية للموسوعات،ط2003،1،ص180

[15] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ،ص315

[16] مجلة دراسات،مختار بزاوية،جامعة وهران1 أحمد بن بلة،مقال بعنوان منهج النحاة في استقراء اللغة والاحتجاج بها بين الرد والقبول مصادر السماع الثلاث:القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب-،جوان2019،المجلد8،العدد1،ص75

[17] مرجع سابق، علي مزهر الياسري،الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه،ص176

[18]أبي الفتح عثمان ابن جني،الخصائص،دار الهدى للطباعة والنشر،بيروت-لبنان،ط2،ج1،ص34

[19] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،منطق العرب في علوم اللسان،ص16

[20] نفس المرجع،ص23

[21]ابن العباس أحمد القلقشندي،صبح الأعشى،مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرةنط1922،1،ج1،ص169

[22] ينظر مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،منطق العرب في علوم اللسان،ص96

[23] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ،ص252

[24]مرجع سابق،سعيد الأفغاني،في أصول النحو،ص17

[25]عفاف حسانين،في أدلة النحو، المكتبة الأكاديمية1996 ،ط1،ص17

[26] ينظر،مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ،ص251

[27]خديجة الحديثي،الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه،مطابع المقهوي الكويت1974،ص129

[28] ينظر،مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ،ص253[28]

[29]نفس المرجع،ص260

[30]نفس المرجع،ص262

[31]أبي البركات عبد الرحمان كمال الدين بن محمد الأنباري،الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو،دار الفكر،ط2،بيروت 1971،ص 83-84

[32] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ،ص255

[33] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،منطق العرب في علوم اللسان،ص100

[34]مرجع سابق عفاف حسانين،في أدلة النحو، ،ص16

[35]جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو،دار البيروتي2006،ط2،ص51

[36] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،ص273

[37] ينظر، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،ص258

[38]أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا،الصاحبي في فقه اللغة،مطبعة عيسى البابلي الحلبي،القاهرة،ص48

[39]ينظر،نفس المرجع ونفس الصفحة

[40]نفس المرجع،ص259

[41]نفس المرجع،ص260

[42] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،منطق العرب في علوم اللسان،ص106

[43]في اللهجات العربية،إبراهيم أنيس،مكتبة الأنجلو المصرية،ط2003،ص15

[44]محمد أحمد خاطر،في اللهجات العربية مقدمة للدراسة،مطبعة الحسين الإسلامية بالقاهرة مصر،سنة1979،ص5

[45] ينظر، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،ص151

[46] نفس المرجع،ص153

[47] أنيس فريحة،اللهجات وأسلوب دراستها،دار الجيل بيروت،ط1ن1989،ص77

[48] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،ص155

[49]نفس المرجع،ص155

[50]جولييت غارمادي، اللسانة الإجتماعية ،دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت،ط1990،1،ص67-68

[51] د.هدسون،عالم الكتب عبد الخالق ثروت القاهرة،ط1990،2،ص72

[52] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،ص155

[53] نفس المرجع،ص156

[54] محمد عفيف الدين دمياطي،مدخل الى علم اللغة الاجتماعي،مكتبة لسان عربي للنشر والتوزيع،ط2017،2،ص124

[55] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،ص158-159

[56] حسن كزار،اللسانيات الجتماعية في الدراسات العربية الحديثة التلقي والتمثلات،دار الرافدين للطباعة والنشر،ط1،ص46

[57] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،ص162

[58] أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ،البيان والتبيين،مكتبة الخانجي بالقاهرة،ج2،ط7،ص211

[59] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،ص163

[60] تشيم رابين، اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية،المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت،ط1 2002،ص396

[61] أبو الفتح عثمان بن جني،الخصائص،دار الهدى للطباعة والنشر بيروت لبنان،ج1،ص383

[62] مرجع سابق، عبد الرحمان حاج صالح،السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،ص163

[63] حسام سعيد النعيمي،الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني،دار الطليعة للطباعة والنشر،1980،ص72

[64] أبي زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري،المطبعة الكاثوليكية للآباء المرسلين اليسوعيين في بيروت1892،ص234-235